

إلى صديقى ...

## حول زيارة لضريح ابن عربى

للأستاذ صديق شيبوب



هنيئاً لك يا أخى تنقلك بين مصايف لبنان المرتفعة منها والمنخفضة ، بين الجبال الشاهقة والأودية السحيقة ، بعيداً عما نمانيه من حر مضن ورطوبة قاتلة وزلة وافدة . ولعلك بعد أن تم طوافك في لبنان لا تنسى أن تزور دمشق لأنه لا بد لكل من يصطاف بلبنان من أن ينتهى بزيارة الفيحاء ، أو كما قال شاعرنا العربى

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضحة النام

ولدمشق سحر خاص تتميز به عن غيرها من البلدان العربية الكبرى . ولا أصف لك الحدائق الغناء التي تحيط بها ، وهي نفحة من نفحات الجنان ، ولا الآثار البديعة القائمة فيها وبعضها من الروعة بمكان . فإنك ستروها وستشهد هذا جميعه وتعجب به وزائرو دمشق يكتفون عادة من آثارها بالجامع الأموى ودار الجمع العلمى والمكتبة وبعض القصور القديمة وبعض المصانع الوطنية ؛ وقليل منهم من يفكر في زيارة ضريح الشيخ محي الدين ابن عربى ، أو يفتن إلى أن « بحر المعارف الإلهية » وترجمان العلوم الربانية ، الشيخ الأكبر ، والقطب الآخر « كما يلقبه الشيخ عبد الغنى النابلسي ، مدفون فيها

ولقد زرت دمشق أكثر من مرة ، وكنت في كل مرة أتردد على الأماكن التي تعود الناس زيارتها . ولم أفتن مرة إلى ضريح « الشيخ الأكبر » كما يلقب علماء الصوفية ابن العربى بالرغم من أنى ركبت أكثر من مرة ( تروما ) يعرف خطه باسم « الشيخ محي الدين » في غدوى ورواحى إلى حى الصالحية حيث كنت أقيم

ولم يخطر يالى في زيارتى الأولى أن أسأل من هو محي الدين هذا . ولا أخفى عنك أنى لو سألت يومئذ عنه وقيل لى إنه

ابن العربى لما نبه في ذهنى خاطراً بعيداً ، أو بعث في نفسى شوقاً مزيداً إلى زيارة ضريحه ، لأنى لم أكن أعرف عنه أكثر من أنه إمام من أئمة الصوفية وأنه صاحب هذه الآيات الجميلة التي كنت أحفظها من غير أن أتفت إلى معناها الصوفى وهى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى إذا لم يكن دينى إلى دينه دان وقد صار قلبى قابلاً كل صورة فرعى للزنان ودير لرهبان وبيت لنيران ومعبد طائف وألواح تورا ومصحف قرآن أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى ولم أكن أعرف ابن العربى ، كما وصفه الشيخ صفى الدين ابن أبى منصور في تماير صوفية رائعة ، فقال إنه « الشيخ الإمام المحقق ، رأس أجلاء العارفين والمقربين ، صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس الروحانية ، والفتوح الموثق ، والكشف المشرق ، والبصائر الخارقة ، والسرائر الصادقة ، والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ، والمحل الأرفع من مراتب القرب في منازل الأنس ، والمورد العذب في مناهل الوصل ، والطول الأعلى في معارج الدنو ، والتقدم الراسخ في التمكن من أحوال النهاية ، والباع الطويل في التصريف في أحكام الولاية . وهو أحد أركان هذا الطريق »

أو كما وصفه الذهبي : « وله توسيع في الكلام ، وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيق في التصوف ، وتأليف جمة في العرفان . ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس . ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته »

أو كما وصفه السدى : « كان ابن العربى ظاهري المذهب في المبادات ، باطنى النظر في الاعتقادات ، خاض بحار تلك المبادات ، وتحقق بمحاج تلك الإشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولى البصر بالتقدم والإقدام ، ومواقف الغايات في مراتب الأقدام »

أو كما قال أيضاً : « وكان جميل الجملة والتفصيل ، محصلاً لفنون العلم أخص تحصيل ، وله في الأدب الشأو الذى لا يلحق » أجل لم أكن أعرف هذا جميعه عن ابن العربى ، بل لم أكن أعرف كثيراً أو قليلاً عن أئمة التصوفين لأنى وصلت إلى دراسة

التصوف متأخراً... بل إلى لم أكن أندوق كما يجب أشعار ابن الفارض لأنى لم أكن أظن إلى كل معانيها الصوفية .

وأذكر اليوم في شيء من الخزي أن كبيرة أديباتنا المربيات زارت منذ سنين ضريح ابن الفارض بالقاهرة بسفح المقطم، أو كما قال حفيده الشيخ علي في رثائه المعروف «بالقرافة تحت ذيل المارض» ثم كتبت عنه مقالاً كله إطراد وثناء؛ وكان أن لقيتها بعد ذلك بالأسكندرية حيث كانت تصطاف وقلت لها: إلى لا أشاطرها إعجابها به. فأجابتنى بأنه يجب أن أحاول فهم شعر ابن الفارض من الناحية الصوفية قبل أن أحدث عنه كشاعر.

ولعل هذا كان أول حافظي لدروس الصوفية على قدر اجتهادي ولا شك أن لابن الفارض مكانة خاصة في شعرنا العربي لأنه يكاد يكون الوحيد الذي عالج شعر الصوفية على النحو الذي نحماء شعراء الفرس والترک الصوفيون المبتدعون أمثال المطار وجلال الدين الرومي وسعدي وحافظ. ولا يدانيه في هذا الباب غير ابن العربي، وإن يكن قد قصر عنه. فابن الفارض إذن فارس هذه الحلبة في لفتنا العربية وبطلها الفرد، وقد قال فيه نيكلسون: «إلى أشعار ابن الفارض غاية في اللطف». ولا أذكر الآن من قال في وصف ديوانه إنه «معجزة في عالم الأدب» والصوفية في شعر ابن الفارض مراتب من حيث الوضوح والعموض. ولعل «خبرته» تحسب وسطاً بين شعره الفنائى النزلى وبين «الثائية الكبرى» المروفة بنظم السلوك.

وهل أروى لك للدلالة على تشعب معاني هذه القصيدة الأخيرة ما ذكروا من أن أحدهم قصد ابن الفارض يستأذنه في شرحها، فسأله عن مقدار الشرح، فقال: إنه سيقع في مجلدين. فضحك الشاعر الصوفى وقال: «لو أردت لكتبت مجلدين تفسيراً لكل بيت فيها».

على أن المقرئ يذكر في ترجمة عمر بن الفارض أن محي الدين ابن العربي بحث إليه في شرح الثائية الكبرى فرد عليه الشاعر: «كتابك المسمى بالفتوحات نرح لها» إشارة إلى كتاب ابن العربي «الفتوحات المكية» الذى جمع فيه شتات العلوم الصوفية في خمسمائة وستين باباً.

وبين ابن العربي وابن الفارض بعض الشبه. كانا معاصرين فكلاهما من رجال القرن السابع للهجرة، أى القرن الثالث عشر للمسيح، فقد توفى ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وتوفى ابن العربي سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م). وكان ابن الفارض يصاب بدورة إغماء وغيبوبة فإذا أفاق منها أملى أشعاره؛ وكان ابن العربي يمتدح أن ما يكتبه يتحول إليه بطريق الوحي في حالة النيبوبة والمجاهدة. وكلاهما من أئمة الصوفية، ولكن بينما غامضة بعض الغموض عند ابن الفارض لأنه يرض إليها في صور شعرية، نجددها واضحة عند ابن العربي لأنه يبحثها تراً. وكان ابن الفارض ينظم غزلاً يرمز به إلى الله في غير حبيب مجهول، ويكثر فيه من أنواع البديع بينما نجد ابن العربي ينظم شعره من غير أن يعتمد أنواع البديع في فتاة مكية.

أما من حيث المحسنات البديعية فلهل الفرق ناتج عن المحيط الذى نشأ فيه كل واحد من الشاعرين. فقد ولد ابن الفارض في القاهرة ونشأ في محيط شرقى فاكتسب شعره المميزات التى كانت بارزة في بيئته بين معاصريه. أما ابن العربي فقد ولد بمرسية (في ١٧ رمضان سنة ٦٥٠ هـ. أى ٢٨ يوليو سنة ١١٦٥ م). ونشأ وتادب في بلدان الأندلس بين أشبيلية وسبته، وقد استقر في الأولى ما يقارب الثلاثين عاماً، ولم ينزح إلى المشرق إلا عندما شارف الأربعين سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢) فاكتسب شعره مميزات مواطنيه، وكانوا أقل عناية بالمحسنات اللفظية من شعراء مصر والشام والعراق.

أما معشوقته فتاة مكية تسمى «نظاماً» وتعرف بلقب «عين الشمس». وكان والدها من علماء فارس الذين نزحوا من بلادهم وأقاموا في مكة. وكانت لما عرفها ابن العربي في الرابعة عشرة من عمرها على كثير من العلم والمعرفة، بليغة الخطابة، جيدة الكلام، بارعة الجمال. وقد لقيها أثناء إقامته بمكة عام ٥٩٨ هـ أى غب رحلته من بلاد الأندلس. ثم نأى عن مكة زمناً حتى إذا عاد إليها سنة ٦١١ نظم فيها بعض القصائد فوصف جمالها الفتان وعلمها الواسع وذكر ما كان بينه وبينها من حب. ثم رأى بعد ذلك

أن يتبع هذا الديوان الصغير بشرح صوفي

\*\*\*

بعد بنا هذا جميعه عن ضريح ابن العربي وزيارته

وهنا يجب أن أذكر شيخنا التفتازاني رحمه الله . سأله مرة أين قبر ابن العربي ؟ فقال بأسلوبه المذهب الذي تذكره : كيف لا تعرف ضريح ابن العربي ؟ وكيف تزور دمشق ولا تزوره ؟ إنه فيها بعد « الجسر » وتصل إليه بخط ترام معروف باسمه « الشيخ محي الدين » . ألم تقرأ في الشعراني قوله : « وقبر ابن عربي <sup>(١)</sup> في الشام ، وقد بنيت عليه قبة عظيمة وتكية وفيها طعام وخيرات » قلت ولكني أعرف أنه توفي بدمشق ولكنه نقل إلى جبل قاسيون ودفن بسفحه . قال : وقاسيون هو الجبل المطل على دمشق والذي بنيت في سفحه في شكل مدرج المدينة الجديدة والحي الذي يعرفونه اليوم باسم المهاجرين

وكان أني زرت دمشق بعد ذلك ولآخر مرة في صيف سنة ١٩٣٥ ، وأقت فيها أياماً ضيقاً على أحد أقاربي ، ولما كان بقيم بالصالحية ، وهي في أول مرقى الجبل قبل المهاجرين ، كنا نركب الترام في الفندو والرواح . وهناك خطان أحدهما يعرف باسم « المهاجرين » ، والآخر باسم « الشيخ محي الدين » . والحق أني كنت نسيت ابن العربي ووصية الشيخ التفتازاني . وسأفني الفضول مرة نسأت قربي من يكون الشيخ محي الدين هذا . فقال : إنه عالم صوفي يعرف بابن العربي ، وأن له ضريحاً ومسجداً في آخر خط الترام ندعوه باسمه . وهنا تذكرت الماضي وقلت : أجل يجب أن تزوره

وبعد ظهر ذلك اليوم أقلتنا عربية أخذت ترق بنا الجبل حتى وصلنا إلى حيث المسجد بعد أن اجتزنا حياً وسوقاً تختلف أبنيتهما جدة وقدماً ، وأكثرها قديم . وكان جماعة من الفقراء يزدهمون بباب المسجد ، فإذا تجاوزت الباب استقبلك بهو واسع

(١) كانوا في الغرب يلقبون الشيخ محي الدين بابن « العربي » لأنه كان من أصل عربي فبح ينسب إلى حاتم الطائي ، وعند ما تزح إلى الشرق عرفوه فيه بابن « عربي » من غير أداة التمرير ، تمييزاً له من القاضي أبي بكر بن العربي

توسطه بركة ماء كبيرة ، وفي آخر البهو إلى الشمال الضريح ، وهي غرفة حسنة الاتساع طفت بها فإذا على حائطها كثير من الشعر المنقوش على رخام قائم في الحائط . وحاولت أن أقرأ بعض الشعر فوجدته باللغة التركية . وقبل أن أستطيع الإلمام بقيته تقدم إلينا شيخ وقال : قد أذفت صلاة العصر فهلما نصل ثم نتابعان زيارتكما بعد ذلك

ولا أذكر الآن كيف تخلصت من الشيخ ودعوته إلى الصلاة ، ولكني وجدت وتشد أنا في موقف حرج لا في أجهل ماذا يكون شعوره لو عرف أننا مسيحيان . وأشرت إلى صاحبي أن من الخير أن نغادر المكان على أن نمود في فرصة أخرى أكثر ملازمة من هذه ، فخرجنا . ولم تمنح لي فرصة أخرى للعودة

\*\*\*

كانت العربية تهبط من الجبل ، ونحن نستشرف تارة الحقول المنبسطة ، وأخرى دمشق بقباها اللامعة وماذنها العالية تتخلها الأشجار الباسقة وتكتنفها الرياض والبساتين ، ونستجلي هذا المنتشر في الأفق الحاني والطبيعة الساحمة والمدينة المنبسطة . وكنت لا أزل تحت تأثير زيارة الضريح أفكر في الأندلس التي طاف البلاد العربية فكان في كل مكان يحمله كأنه بين أهله وإخوانه يتقرب إليه الناس ويمجى عليه الحكام الأرزاق فيوزعها على الفقراء والموزين . أليس دبتك الحب كما قال في أبياته التي ذكرها . وهذا الجبل الذي تشرف عليه ونستجليه في هذه المناظر الخلابة ، أليس من صنع الله ، وما دام من صنعه فهل هو قائم فيه حقاً . وهل صحيح ما قاله ابن العربي « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » أو ما نظمته شعراً :

بخالق الأشياء في نفسه أنت لا تخلقه جامع  
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك ذات الضيق الواسع

وذكرت هذه النلسفة الشمولية التي نادى بها العربي والقائمة على مذهب وحدة الوجود . ولا عجب فقد كنت « مسافراً » على حد تعبير ابن العربي الذي قال إن « السفر » عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى . ولا شيء أدمى إلى هذا التوجه مثل التأمل بجبال الطبيعة .

## بطاقة...

للدكتور محمد ناجي



بطاقة تحمل على صدرها اسم صاحبها مجرداً من أى لقب ،  
وخلوا من أى عنوان أو رقم تلفون ؛ وكأنى به لا يحمل لقباً ،  
ولا يعرف لنفسه عنواناً ، ولا يملك رقم تلفون ، ولم يمن الله عليه  
إلا ييضة قروش ثمن بطاقته

صرت تلك البطاقة على ناظرى ، ثم جالت بخاطرى ، حتى  
شغلتنى عن أمرى ، فعجبت لها أيما عجب !

بطاقة فريدة فى نظمها ، عجبية فى نثرها ، قليلة فى لفظها ،  
غفرت فى أمرها ، وضائق فى تفسيرها ، ولم أدر ما شأنها ومن  
يكون حاملها ؟

إنها تخالف بطاقات العصر ، هى فى واد والعصر فى واد .  
بطاقات العصر تحمل من الألقاب والمعنونات والأرقام ما ليس لها  
ومالها ، كأن الشيطان أوحى لها ، حتى لا تدع موضعاً للقب جديد ،  
أو زيادة لستريد ...

فمن يكون هذا الذى يخالف العصر فى بطاقته ، ويزأباً المعجب  
فى نزعاته ؟ إنه محمد طلعت حرب . ذلك الرجل المتواضع حتى  
فى بطاقته ، ولو شاء أن يسطر اسمه وألقابه وعنواناته وتلفوناته  
لكانت بطاقته كتاباً

إن بطاقته تحمل فى نفسها أدب الإعلان عن النفس ، إنها  
لحكمة بالغة ، تسيطر على الحس والنظر والفؤاد ، إذ لها فى كل  
قلب مستقر وفى كل واد أثر . هذه هى البطاقة التى برت الزمن  
وعلمت المصرى ما لم يكن يعلم . إنها تذكرة القدر ، وإنها  
لإحدى العبر ، فطوبى لمن قرأ وادكر ، وعرف قدر نفسه  
واعتبر ...

محمد ناجي

عضو القومسيون الطبى العام

وفهمت وقتئذ كيف شد ابن العربى عن أشباع نظرية وحدة  
الوجود المادية فتوجه بها إلى عبادة الخالق والشعور بالافتقار إليه  
تعالى ، وهى عبادة الضميف للقوى والفقير للفنى . وفهمت كيف  
أنه بالرغم من شعوره الدينى الإسلامى العميق قال بوحدة الأديان  
لأنها جميعاً تدعو إلى عبادة الواحد المتجلى فى صورهم وصور  
جميع المعبودات

والحق أننى اليوم وأنا أكتب إليك بين جدران حجرى  
أجد من الصعب أن أذكر كل هذه الخواطر التى صرت بذهنى  
بينما كنت أتحدر من جبل « قاسيون » إلى دمشق .

\*\*\*

وبعد فإنى أرجو ألا نجد فى هذه الرسالة صورة كاملة  
لابن العربى ، ولكنها خواطر جالت بفكرى عند ما أردت  
أن أنبهك إلى ضرورة زيارة ضريحه . وأنت تجد أنى لم أحدثك  
عن حياته وآرائه ومؤلفاته وما قام حول مذهبه من جدل حمل  
بعضهم على رمية بالكفر وما كان من أثره بين أهل الشرق  
والغرب وخاصة ما وجده المستشرق الإسبانى « ميغل اسين »  
من شبه بينه وبين « دانتي » فألف كتاباً قرر فيه أن الشاعر  
الإيطالى أخذ كثيراً عن المتصوف العربى وتأثر به فى نظم قصيدته  
الخالدة « الكوميديا الإلهية » أو كما قال البحانة الإنكليزى  
« ألفريد جيوم » إن ابن العربى كان من الذين « أخرجوا للناس  
المنافج المدهشة الأولى للكوميديا الإلهية »

على أننى لا أريد أن أختم رسالتى إليك قبل أن أروى لك  
قصة ذات دلالة كبيرة على طريقة هؤلاء الصوفيين ومنازعهم  
الفكرية والتأملية . فقد رووا أن ابن العربى اجتمع بالشهاب  
السهروردى فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم اقترعا من غير كلام .  
فقيل لابن العربى ما تقول فى السهروردي ؟ فقال : « مملوء سنة  
من قرنه إلى قدمه » وقيل للسهروردى ما تقول فى الشيخ محيى  
الدين ؟ فأجاب : « بحر حقائق »

ولعلك تكون يا أخى أكثر توفيقاً منى عند زيارة ضريح  
ابن العربى وأعق شعوراً بما يطوف بك من جمال .

صمدى شبيب

(الأسكندرية)